الضعفاء والغطرسة الأميركيّة

اختراع الإرهابيّ وأبلسته

• فيصل درّاج* •

تعريف الإرهاب

دول عربيّة كثيرة تطالب بتحديد معنى الإرهاب قبل أن تَنْخرط في أيّ عمل دوليّ ضدّه، وقبل أنْ تَنْظر بعين الرضا إلى المسعى الأميركيّ الذي يحثّ الدولَ جميعًا على «تحالف دوليّ مناهض للإرهاب.» وما تقصده الدول العربيّة واضح، وقوامُه التمييزُ بين «الإرهاب» و«المقاومة الوطنيّة» ـ وهو ما يَحْجب نعتَ «الإرهاب» عن الحركات الوطنيّة والإسلاميّة في فلسطين، ويسوّغ ممارسات حزب اللّه في لبنان. وهذا التمييز ينطوي على الفصل بين الإرهاب وحقّ الدفاع عن النفس: ذلك أنّ الإنسان المضطهَدَ والمحاصَرَ والمغتصبةَ أرضُه لا يكون إنسانًا سويّاً إنْ لم يدافع عن كرامته وحقوقه الإنسانيّة المشروعة.

تَعْطف الدولُ العربيّة المطالبةُ بتعريف «الإرهاب» على مطلبها الأوّل مطلبًا آخر لا تَنْقصه الشرعيّةُ والحكمةُ، قوامُهُ الرجوعُ إلى الأمم المتحدة، من حيث هي إرادةٌ عالميّةٌ، ولو شكليّاً، من أجل تحديد الوسائل العمليّة لمحاربة ما تريد أن تحاربه الولاياتُ المتحدةُ الأميركيّة. وإذا كان هذا الطلب لا يشير صراحةً إلى غطرسة القوّة، وهي صفة أميركيّة متوالدة، فإنّه يعلن على الأقل رفضَه لأحاديّة المرجع والقرار في السياسة الدوليّة. فالولايات المتحدة تطالب بـ «تحالف دوليّ» دون أن تَرْجع إلى الدول المعنيّة، كما لو كان العالم كلُّه مجرّدَ ولاياتٍ أخرى تابعةٍ للولايات الأميركيّة.

وعلى الرُّغم من صحة المطلبَيْن العربيَّيْن وعدالتهما، يَبْقى أمر ثالث قد يقول به الأفرادُ ولا تقول به الدولُ لاعتبارات كثيرة. وهو يدور حول الإرهاب الأميركيّ في العالم، منذ أن اغتيل ساندينو في نيكارغوا، في بداية ثلاثينيّات القرن الماضي، إلى أحداث البوسنة التي لاتزال تتوالد حتى اليوم. وإذا تركنا العالم في أحواله وأحوال الإرهاب الأميركيّ فيه، يقف أمامنا مباشرةً العالمُ العربيُّ الذي عانى ويعاني سياسةً أميركيّةً هي مزيج من غطرسة القوّة والنزعةِ الصليبيّة القديمة وروح «اكتشافيّةٍ مؤْمنة» تساوي، ضمنًا، بين الفلسطينيّين والهنود الحمر الراقدين في مقابر لا تُحصى. ولم يكن إدوارد سعيد مخطئًا، في دراسة له في كتاب جماعيّ عنوانُه **لومُ الضحايا**، حين فسَّر الهوى الأميركيّ لإسرائيل بذاكرة جماعيّة أميركيّة قديمة ترى في الصهيونيّ في فلسطين امتدادًا لـ «روّاد الغرب الأميركيّ» القديم.

أميركا والعرب

والذاكرة العربيّة التي تَنْظر إلى علاقات أميركا بالعالم العربيّ لن تجد في ثناياها، حتى لو كانت «ليبراليّةً» ومن دعاة «حوار الحضارات،» إلاّ مسلسلَ اعتداءات أميركيّة لا ينتهي. كأنّ العلاقة العربيّة ـ الأميركيّة لا تَسْتوي إلاّ في علاقات السيطرة والإخضاع، أو في إطار التحدّي والمواجهة والهزيمة. ولذلك لا يَبْدو العالمُ العربيُّ، من وجهةِ نظر الولايات المتحدة، سليمًا ومقبولاً وفاضلاً إلاّ إذا ارتضى المعاييرَ الأميركيّةَ؛ فإنْ رَفَضَ حلّت عليه صفاتُ الديكتاتوريّة والإرهاب، وسقطتْ عليه القنابلُ في زمن، أو «زاره» مشاةُ البحريّة الأميركيّة في زمن آخر.

ففي الخامس عشر من تموز عام ١٩٥٨، أَنْزلت الولاياتُ المتحدة خمسةَ عشر ألفًا من مشاة البحريّة الأميركيّة على شواطئ بيروت، بحجّة الدفاع عن «التعايش الطائفيّ في لبنان»؛ وهو ما كشفتْ زيفَه الباحثةُ الأميركيّةُ إيرين جندزير (**لوموند ديبلوماتيك**، تموز ١٩٩٨) في دراسة طويلة لها تبيِّن أنّ الإنزال هيّأه وخطّط له الأميركيّون للدفاع عن مصالحهم. ومهما تكن الاجتهادات الخاصة بحرب حزيران عام ١٩٦٧، فإنّ نتائجها ما كان لها أن

---

* ـ من كبار الكتّاب الفلسطينيّين. من كتبه: **بؤس الثقافة في المؤسّسة الفلسطينيّة**، و**دلالات العلاقة الروائيّة**. له عشرات المقالات في الآداب و**الطريق** و**الكرمل** و**الهدف** و**الوسط** و**النهج** وغيرها.

• فيصل درّاج •

تكون على ما كانت عليه دون ذلك التحالف العضويّ بين إسرائيل والولايات المتحدة. ومع أنّ حروب ذاك الزمن كانت تَرْتبط بـ «المصالح الحيويّة» و«التوازن العالميّ،» فإنَّ تحوّل ذلك الزمن كما رحيلَه كليّاً لم يغيّرا في المنظور الأميركيّ شيئًا: فقد بقي دائمًا في العالم العربيّ ما «يستحقّ» الردعَ والعقابَ.

عام ١٩٨٦ شنّت الطائرات الأميركيَّة هجومًا على ليبيا وقصفتْ صواريخُها العاصمةَ الليبيّة، بغيةَ «تأديب» النظام الذي رأى فيه رونالد ريغن نظامًا إرهابيّاً يهدِّد سلامةَ الولايات المتحدة ويهدِّد حياةَ الرئيس الأميركيّ شخصيّاً. ومع أنَّ تشومسكي وضع دراسة طويلة عن اختراع الإعلام الأميركيّ لصورة الزعيم الليبيّ، فإنَّ الرئيس ريغن تمسكّ بتعريفه للإرهاب، وتمسكّ أكثر بضرورة عقاب «الإرهابيِّين.» وواقع الأمر أنَّ الإرادة الأميركيَّة، وقد أخذتْ صفاتِ الخالق ودورَه، تعطي للعدوّ الذي تشاء الصورةَ والملامحَ التي تشاء، كي تقرِّر، في نهاية المطاف، ذلك العقابَ الموافِقَ الذي تشاءه أيضًا.

انطلاقًا من المشيئة الأميركيَّة التي تَنْعت مَنْ لا يَقْبل بها بـ «الإرهابيّ،» أَقْدمت الولاياتُ المتحدة عشية العشرين من آب عام ١٩٩٨ على إطلاق أكثر من عشرين صاروخًا من طراز كروز على الخرطوم. ولم تكن الولايات المتحدة بحاجة إلى اختراع عذر؛ ذلك أنَّ العذر المطلوب قائم وجاهز وحاضر وعنوانُه «الإرهاب.» ومع أنَّ المنطق السليم يَقْضي بألاَّ تُحارَبَ الرذيلةُ بالرذيلة، وألاَّ يواجَهَ الإرهابُ الوهميُّ بإرهابٍ حقيقيّ، فإنَّ الولايات المتحدة تَخْترع الإرهابيَّ وتعاقبه بشكل إرهابيّ، تاركةً الإرهابَ الحقيقيَّ مطمئنّاً في مكانه، كأن تتركَ شارون ـ ومَنْ سبقه ـ يَفْتكون بالشعب الفلسطينيّ بكل الأسلحة. ولأنَّ أصحاب الفضائل المخترعة المتشابهة يتكاتفون، فقد أَرْسل نتنياهو إلى كلينتون، حين قَصَفَ السودانَ، تحيةً كبيرةً جاء فيها: «نحن الآن نؤيِّد تلقائيّاً الولايات المتحدة حين تردّ على الإرهاب... إنّ ذلك لا يكون في خطوة واحدة، إنَّه يَسْتلزم جهدًا متواصلاً...»

يتَّفق الطرفان الأميركيّ والإسرائيليّ، إذن، في تعريف «الإرهاب» ويتحالفان في الردّ على هذا «الإرهاب.» والنتيجة الواضحة هي أنَّ الطرفين ديموقراطيَّان ـ ذلك أنَّ الديموقراطيَّة نقيض الإرهاب ـ وأنَّ العرب إرهابيُّون بالضرورة. غير أنَّ الوقائع أثبتتْ، غيرَ مرَّة، أنَّ الاختراع لا يساوي الحقيقة، وأنَّ الإرهابيّ المزعوم يمارِسُ غيرَ ما يُنْسب إليه. ولذلك لن يكون الهدفُ الإرهابيُّ الذي طالتْه الصواريخُ الأميركيّة في السودان إلاَّ مَخْبرًا كيميائيّاً يُنْتج أدوية للمرضى، أيْ مصنعًا سلميّاً يردّ بعضَ الأمراض عن شعبٍ تَفْتك به أمراضٌ كثيرة. ولن يكون الإرهابيُّ الفلسطينيُّ المفترض إلاَّ ذاك المضطهدَ المعذَّبَ المقهور الذي تجعله الطرقُ الالتفافيّة الإسرائيليَّة يَقْطع في أربع ساعات مسافةً كان يقطعها، في بدايات «اتِّفاق أوسلو،» في نصف ساعة لا أكثر. ولن يكون الفلسطينيُّ، كما المَخْبَرُ السودانيُّ، إلاَّ صورةً أخرى عن بناية العامريَّة في بغداد التي لم تلتقِ فيها الصواريخُ الأميركيّة، التي تطارد «الإرهابَ،» إلاَّ جماعةً كبيرةً من الأطفال والنساء والعَجَزة الذين انتَزعوا من بوش الأب أسفًا بعد أن حولّتهم نيرانُ الغضب الأميركيّ كتلاً متفحّمة.

وجوه الإرهاب الأميركيّ

وواقع الأمر أنَّ للاختراع الأميركيّ للإرهاب آليّةً خاصةً به متعدِّدةَ المراتب، تتَّكئ على سلطة واسعة متعدِّدة الوجوه. وأوّل هذه الوجوه السلطةُ الإعلاميَّة، التي تبدأ بـ «أَبْلسة» الإرهابيّ المفترض، بلغة تشومسكي، أيْ تجعل منه إبليسًا يتَّفق الجميع (الرأيُ العامُّ الأميركيّ أولاً) على ضرورة إلحاقِ أشدِّ العقاب به. وهكذا يتم الاختراعُ بشكلٍ يلبِّي العقابَ الصارمَ القادم ويوافقه. وهذا ما أَنْجزه الرئيسُ ريغن وهو «يؤبلس» الرئيس القذافي تمهيدًا لضربه؛ وأَنْجزه بوش الأب والابن، كي يؤبِّدا تعذيبَ الشعب العراقيّ، مبرهنيْن للمرَّة الألف تلك القاعدةَ الظالمةَ التي تعاقب شعبًا بأكمله من أجل فرد واحد. وكان من الضروريّ، بعد

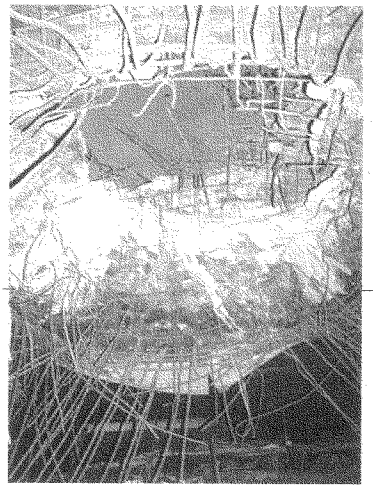

قصف ملجأ العامريَّة في العراق، وطائرات الأباتشي المغيرة على فلسطين: صُنع في أميركا

أن صفعت المقاومةُ الفلسطينيَّةُ شارون أكثرَ من مرّة، أن تتمّ أبلسةُ الشعب الفلسطينيّ، كي يدير له الرئيس بوش الابنُ ظهرَه بحجّة الإرهاب الفلسطينيّ المستطير الذي يحاصر الشعبَ الإسرائيليَّ، كما قالت مادلين أولبرايت ذاتَ مرّة.

ومع أنَّ أبلسة المسلمين ليست جديدة ـ فالتلفزيون الأميركيّ وما يشابهه يختارون صورًا معيَّنة من المجتمعات العربيَّة ـ فإنَّ ما حصل في مركز التجارة العالميّ في نيويورك مؤخّرًا ألغى المسلمين كأفراد ووضَعَ مكانَهم الدينَ الإسلاميَّ كلَّه بغية عقاب الإسلام والمسلمين معًا. وبداهةً فإنّ السلطة الإعلاميَّة الأميركيَّة، وهي مترامية، تُسَلِّم ما تُنْجزه إلى السلطة السياسيَّة، وهي مرجعُها على أيّة حال، كي تتقدَّم لاحقًا، وبالضرورة، السلطةُ الحربيَّةُ، التي توزِّع القنابلَ على بغداد والخرطوم وطرابلس الغرب. وفي الصورة كلِّها يتجلَّى ذلك العنوانُ الواسعُ والمعروفُ والقديمُ وهو «غطرسة القوَّة،» التي تَخْلق الجلَّادَ والضحيَّةَ في منطق متغطرس يَجْعل الجلَّادَ ضحيَّةً والضحيَّةَ جلَّادًا. كأنَّ القويّ، وقد تحرَّرَ من الروادع الأخلاقيَّة والإنسانيَّة والدينيَّة، يردِّد بلا كلل: «البقاء للأقوى.»

غير أنَّ هذا البقاء الغريب يهدِّد الموروثَ الإنسانيَّ كلَّه. ذلك أنَّ الإنسانيَّة أنتجتْ، فيما أنتجتْ، مفاهيمَ النظام والقانون والدستور والعرْف الإنسانيّ العامّ. ولعلّ هذا البقاء الغريب، على الطريقة الأميركيَّة، هو ما يَجْعل الولايات المتحدة تَغْتصب الإرادة الدوليَّة وتَعْبث بالأمم المتحدَّة؛ وهو ما يَجْعل بعضَ المسؤولين العرب يذكّرون بفكرة النظام والقانون، أيْ بضرورة الرجوع إلى الأمم المتحدة من أجل معالجة موضوع «الإرهاب» بعيدًا عن الخلق الزائف والاختراع. ولعلّ إيديولوجيا الانتصار، وهي عبثٌ بالقيم الإنسانيَّة الفاضلة كلّها، هي ما أَطْلق على لسان موظفين في وزارة الخارجيَّة الأميركيَّة تعابيرَ غريبةً مثلَ: «نهايةِ التاريخ،» وتَعْني نهايةَ الإرادات الإنسانيَّة أمام الإرادة الأميركيَّة، و«صدامِ الحضارات» الذي يَعْني تدميرَ الهويّات القوميَّة والدينيَّة المستضعَفة بأدوات الردع والدمار الصادرة عن الثورة التقنيَّة المتجدِّدة. ولذلك لن يكون غريبًا أنْ «تُسرِّب» الولاياتُ المتحدة جرثومةَ السيدا (مرض نقص المناعة) إلى إفريقيا الوسطى والغربيَّة كي يتمّ التخلُّصُ من أربعين بالمائة من سكّان هذه المنطقة في عشر سنوات، كما جاء في تقريرٍ نُشر مؤخّرًا.

إيديولوجيا الاستضعاف

في مقابل غطرسة القوَّة، التي تَخْلق الظواهرَ عن طريق الأسماء والتسمية، تقف إيديولوجيا الاستضعاف. ذلك أنَّ المستضعَف، وهو غير الضعيف، يتلقَّى الضربات المدمِّرة ويَسْكت، لأنَّ «الحجج» التي يسوقها ضعيفة وغير مقنعة. قال كيسنجر مرَّةً: «يستطيع القويُّ أن يَكْذب دون أن يكذِّبه أحد،» معلنًا أنّ القوّة هي الحقيقة الوحيدة. لهذا يكون الإرهاب ما اصطلحت السلطةُ الأميركيَّةُ على أنَّه إرهاب، تاركةً المستضعفينَ يرثون ضعفًا مضافًا إلى ضعفهم، واستجداءً متواترًا لن يقيم قرابةً أبدًا بين الضعف والحقيقة.

وواقع الأمر أنَّ الإسلام، من حيث هو دين، لا علاقة له بالإرهاب أبدًا، وأنْ لا جسور البتةَ بين الإرهاب والمقاومة الوطنيَّة للاحتلال، وأنَّ الجوهر العربيّ غريب عن الشرّ الجوهريّ. بل إنَّ الشرّ يقوم أولاً في هذا العالم المحكوم بالفوضى والعنف وإيديولوجيا القوّة والسديم، حيث على الضعفاء أن يبقوا ضعفاء تُمنع عنهم، وبأكثر من قرار عالميّ، الديموقراطيَّةُ وحقوقُ المواطنة والسلطاتُ السياسيَّة التي تَعْرف معنى الدستور والقانون؛ وحيث على الفلسطينيِّين وعلى غيرهم أن يَفْقدوا إنسانيَّتَهم ويرضوا بوجود بيولوجيّ بائس يؤمِّن استقرارَ الاحتلال الإسرائيليّ ويشيد بفضائل الصهيونيَّة.

لقد قال حكيم يونانيّ قديم: «في بعض الأزمنة المريضة يصبح الخراب سيِّدًا.» وربَّما كان في ما نعيشه اليومَ أشياءُ كثيرةٌ من هذا القول البصير.

دمشق